سليمان الحكيم (ع) النبي الذي سخّر له جنود من الجن والطير.. والريح

قال تعالى: (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (ص/ 30).

سليمان (ع) – كما في الآية – هو هبة الله لداود (ع)، ولو صحّت الروايات التي تذكر وجود إخوة كثيرين له لتأكد أنّ سليمان (ع) عظيم الشأن، وما يؤيّد ذلك الثناء الإلهي على سليمان (ع) (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ). وبالفعل فلقد نشأ سليمان (ع) وترعرع في كنف أبيه: الملك – النبي داود (ع). وكما هو معلوم فإنّ مملكة أبيه الدينية تلك، سادها العدل والرخاء، وعمّ الأمن وهابها الأعداء بعد أن أذلّتهم بإذن الله. ويكبر سليمان (ع) وتكبر معه أحلامه في تلك الدولة الإلهية... أحلام العزّ وإقامة حُكم الله في الأرض، خاصة مع ما رآه آنذاك من نِعَم إلهية مغدقة، وبركات الرسالة وآثار العدل والإحسان. تفتّحت عيناه، وتنبه بسمعه وذهنه لبكاء أبيه وسجوده وكثرة تسبيحه وإنابته إلى الله سبحانه. ينظر قومه فيرى عزّهم وفرحهم بالنصر والرخاء. يحدّق في الطبيعة فيجدها قد تزيّنت وتعبّأت لتتفاعل مع ذلك الجو العابق بنفح الإيمان وبركة ذكر الله واعلاء كلمته. وبذلك لم يعد غريباً أن ينشأ الولد وهو ابن أبيه: فلقد شابهه في العبادة والخُلُق، وتساوى معه بالنبوة والعلم والمعجزات، وآتاه الله الحكمة.. أضف إلى أنّه أخذ عنه خبرة الحرب، وتحمّل

معه عبء همّه ومسؤوليتها. ولكم كان يهتم بمجالس القضاء وشؤونه مع أبيه، حتى ذكر القرآن الكريم اشتراكهما في ذلك وإن اختلفا في الحكم بإرادة ا. (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا...) (الأنبياء/ 78-79). هذا هو سليمان الحكيم (ع): رفيق درب والده، وحامل صفاته ووارثه. قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) (النمل/ 15). ويكفينا من ذكر الصفات المشتركة بين داود وسليمان (ع) أن قال سبحانه عنهما في الآية المذكورة إنّه آتاهما العلم، وفضّلهما معاً على كثيرين، أضف إلى ذلك قوله سبحانه عن داود: (إِنَّهُ أَوَّابٌ) (ص/ 17)، وكذلك عن سليمان: (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ). وذكر عن كلّ منهما أيضاً: (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) (ص/ 40) و(ص/ 25)، وكذلك قوله سبحانه: (وَكُلا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) (النمل/ 16). لعلّ المتأمل في الآية يكتشف أنّ سليمان ورث داود (ع) وأنّه توجّه إلى الناس مباشراً للمسؤولية الجديدة. أما أمر الوراثة فإنّه يشمل المال والملك وإن كان يشترك معه إخوته إن وجدوا بمال أبيه الخاص. فيكون سليمان (ع) قد ورث مملكة عظيمة الشأن، قوية مزدهرة. وطبيعي ألا يُقصد بالإرث هنا العلم والحكمة والنبوة، وذلك لأنّ سليمان (ع) نبي "والنبوة لا تقبل الوراثة لعدم قبولها الانتقال، والعلم وإن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنّه إنما يصح في العلم الفكري الاكتسابي، والعلم الذي يختص به الأنبياء والرسل كرامة من ا لهم وهبي ليس مما يُكتسب بالفكر، فغير النبي يرث العلم من النبي لكن النبي لا يرث علمه من نبي آخر ولا من غير نبي"[1]. وهكذا أضحى سليمان (ع) الخليفة في الأرض بعد أبيه، ولذلك توجّه إلى الناس مخاطباً من مموقع المسؤولية، فيذكّر الناس بما آتاه ا وأباه من قبل على قادة (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى/ 11)، وليبين لهم مقدّرات الدولة الموجودة تحت تصرفه، وربما أوضح أموراً وبرنامجاً لعمله لم يذكره القرآن الكريم لأنّه ليس كتاب تاريخ. وما يؤكد ذلك الآية: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ...) (النمل/ 17-18)، وكأنّه قد طوي كلام عن كيفية بدئه بالحكم وخطته، واكتفي بذكر تحرّكه مع جنوده في سبيل ا. - جنود سليمان: وبالفعل فإنّ من الواضح أنّ القادة – عادة لا يتحركون لغزوٍ أو ما شابه إلا بعد توفّر كل الإمكانات اللازمة، وبعد استتباب الأمن، وانتشار الطمأنينة داخل المملكة والدولة. كما أنّ الجنود الذين يكوّنون الجيش القوي القادر لهم صفاتهم وأوضاعهم

الخاصة. فكيف كان جنود سليمان (ع)؟ لقد سُخّر لسليمان (ع) جنود آخرون إضافة إلى البشر من جنود أبيه. فقد كان من نعمة ا عليه – وعلى بني اسرائيل – أن جعل ا لسليمان (ع) معجزة مختلفة عن غيره من الأنبياء وهي تسخير بعض الجن والطيور والحشرات والريح. وبالطبع فإنّ لهذا التسخير دلالة مميزة... إذا انّ سليمان (ع) أراد إعلاء كلمة ا في الأرض ونشر العدل والإحسان. وذلك يحتاج أحياناً إلى القوة والعدد والعدّة لمواجهة المعارضين والمشركين الذين يريدون القضاء على الإيمان وأهله. وإذا توفّر للقائد الرسالي ما يُعينه على إقامة حكم ا في الأرض فلا مفرّ له من التحرك. وسليمان (ع) توفّر له جيش قوي يقاتل به أعداء ا، ولكنه كان يطمح لأن ينطلق بعيداً في الأرجاء لإيصال صوت الحق. وبما أنّه عُلّم منطق الطيور وقد سخرت له فلماذا لا يستخدمها جنوداً أشبه بأجهزة الاستطلاع. فالطيور يمكنها الوصول إلى حيث لا يصل البشر، فهي تستطيع التحليق عالياً وكلما علت وارتفعت وبعُدت، كبرت المساحة التي يمكنها الاطلاع عليها، وهذا لم يكن ممكناً آنذاك للبشر، إذ كانوا يستخدمون الخيول والدواب للتنقل وذكر الهدهد مثلاً في القرآن للتأكيد على هذا الدور التسخيري والإخباري، خاصة وانّ للهدهد نظراً ثاقباً فيما يقال. ونؤكد أنّ الهدهد ليس وحيداً بين أنواع الطيور المسخرة لسليمان (ع) قال تعالى: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) (النمل/ 20). فقد تفقد سليمان (ع) الطيور المخسرة كلها ثمّ افتقد الهدهد.. وجدير بالذكر أنّ الروايات كالآيات – تؤكد خضوع أنواع الجنود المختلفة لسليمان (ع). فبالإضافة إلى الإنس والطير، كان الجن أيضاً من جنوده. والجنّ نوع من المخلوقات الإلهية المكلّفة كالإنس بالتكاليف الشرعية، ولكن لهم وضعهم وحياتهم الخاصة، ولا نعلم عنهم شيئاً إلا ما ذكره القرآن الكريم وبعض الروايات. وبالفعل فلقد كان الجن بأنواعهم مسخرين لسليمان (ع) يأمرهم فيُطيعون ومن يخالف فله عقابه: قال تعالى: (وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ...) (سبأ/ 12-13).

(وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ) (ص/ 37-38)، أضف إلى الجن والإنس والطير الوحوش والحيوانات الأخرى كالخيول، وله معها قصة أخرى.. حيث كان يستعرضها يوماً قُبيل وقت اعتاد فيه أن يتفرغ لذكر ا، واستعراضها نفسه هو والاستعداد للجهاد في سبيله، فأخّره ذلك عن ذكر ربه فاعتبره أمراً غير طبيعي قال سبحانه: (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ

فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) (ص/ 36-31). فقد سمّى سليمان (ع) استعراضه للخيل بالخير، ومع أنّه خير لكنه أخره عن ذكر ربّه – لا عن الصلاة حتى فات وقتها كما ادّعى بعضهم – ولذلك تاب واستغفر لأنّه اهتم بأمر آخر غير ذكر ا.. للّه درّ الأنبياء، حتى الأمر المستحبّ يستغفرون ا من تركه أو إغفاله ويتوبون من ذلك. ومن الملاحظ هنا أنّ ا سبحانه مَنَّ بنعمة أخرى على سليمان (ع)، وهو يعلم أنّه سيستخدمها في سبيله. فبعد أن تاب – مع أنّه لم يذنب – عوّضه بالريح بدلاً من الخيل كوسيلة للتنقل. وينبغي التوقف هنا عند مسألة مهمة تؤكد التطور النوعي في حركة الجهاد عند سليمان (ع). فمن جنود البشر إلى الطيور والوحوش والخيول، إلى الجن والعفاريت والشياطين إلى تسخير الرياح. وفي تسخير الرياح وحركة الجن والطيور تقريب لفكرة حكم سليمان للأرض قاطبة أو سعيه لذلك على الأقل. وإن لم يكن هناك دليل أو أثر لذلك. ولكن سرعة الرياح تلفت الأنظار إلى حدّ تشبيهها بحركة الطائرات اليوم. وفي هذا القَطْع السريع بواسطة الريح للمسافات الشاسعة دليل على كثرة غزو سليمان (ع) لأعدائه، وعلى اهتمامه الدائم بإعلاء كلمة ا في الأرض. قال تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ...) (سبأ/ 12). ومرّ قوله سبحانه: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ)، فإذا كانت الريح تستطيع نقله إلى حيث يشاء، وإذا كانت الجن تغوص له في البحار، وتستطيع أن تأتيه بعرش بلقيس ملكة سبأ قبل أن يقوم من مقامه، فليس غريباً فيما نرى أن يسير سليمان في الأرض باحثاً عن جهاد في سبيل ا، وإليك هذه الرواية عن أبي عبدا (ع) "لما قبض داود ولي سليمان وعُلّم منطق الطير وسخّر له الجن والإنس، وكان لا يسمع بملك في ناحية الأرض إلا أتاه حتى يذلّه ويدخله في دينه، وسخّر له الريح فكان إذا خرج إلى مجلسه عكف عليه الطير وقام الجن والإنس، وكان إذا أراد أن يغزو أمر بمعسكره، فضرب له بساط من الخشب وجعل عليه الدواب والناس وآلة الحرب كلها حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت الخشب، فحملته حتى تنتهي به إلى حيث يريد، وكان غدوها شهراً ورواحها شهراً"[2]. هذا هو سليمان، النبي الملك الحكيم، المجاهد في سبيل الله؛ وكأبيه كان يخصص وقتاً يجلس فيه ليستمع إلى شكاوى الناس وربما غيرهم من المخلوقات – ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه.. وعلى عظمته وسلطته على كثير من المخلوقات كان همه الوحيد أن يُعبد ا في الأرض:

يعبده هو، ويعبده سكان مملكته، ويعبده أهل الأرض جميعاً لو استطاع ولذلك سخر كل طاقاته وكل ما هو مسَخّر له لبناء معبد وهو ما عرف بهيكل سليمان (ع) وما أدراك ما هيكل سليمان؟! وخير الختام هذه الرواية عن صفة سليمان الحكيم العابد الزاهد رغم غناه، الضعيف أمام ربه رغم قوته أمام أعدائه: "وكان سليمان إذا أصبح تصفّح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين ويقعد معهم ويقول: مسكين مع المساكين، وكان مع ما فيه من الملك يلبس الشعر، وإذا جنّه الليل شدّ يديه إلى عنقه، فلا يزال قائماً حتى يصبح باكياً، وكان قوته من سفائف الخوص يعملها بيده..."[3].

الهوامش:

[1]- تفسير الميزان/ العلامة الطبطبائي (ره)، ج19، ص350. [2]- النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، الجزائري، ط الأعلمي 1978، ص407.

[3]- المصدر نفسه/ ص412.

المصدر: مجلة نور الإسلام/ العددان 21 و22 لسنة 1991م